﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠٩﴾ [الأنعام: 109]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المشركون؛ مرَّةً يسبُّون الله ﷻ ومرَّةً يُقسمونَ بهِ

بعد أن بيَّنتِ الآيةُ السَّابقةُ حال الَّذين أشركوا، ونهي المؤمنين عن سبِّ آلهتهم؛ لعلمِهِ سبحانه بالاستعدادِ النَّفسيِّ للمشركين في الإقدامِ على سبِّ اللّهِ تعالى إنِ اقتضى الأمرُ ذلك، دفاعًا عن معبوداتِهم؛ بيَّن هنا ضحالةَ تفكيرِهم، وشدّة اضطرابهم، وقسمَهم باللّهِ جهدَ أيمانِهم، وما هم فيه من تناقضٍ داخليٍّ، ما بين الاستعدادِ على الإقدامِ على سبِّ اللّهِ، والقسمِ به جهدَ أيمانِهم، فكان ذلك دليلًا على أنَّهم مهما جاءَتهمُ الآياتُ؛ فإنَّهم لا يؤمنون، فقال تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَهۡدَ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (جهد)، الجَهْدُ: ما جَهَدَ الإنسانَ من مَرَضٍ، أو أمرٍ شاقٍّ فهو مَجهودٌ، والجَهْدُ: بلوغُكَ غايةَ الأمرِ الَّذي لا تألو عن الجهدِ فيهِ، تقول: اجتهدتُ رأيي ونفسي، وجَهَدْتُ فلانًا: بلغتَ مشقَّتَهُ، وأجهَدَ القومُ علينا في العداوةِ، وجاهدتُ العدوَّ مُجاهدةً، وهو قتالُك إيَّاهُ[1]، ولعلَّ هذا المعنى أقربُ ما يكون إلى معنى (جهد) في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾، وكأنَّهم يقاتلون أنفسَهم وهم يُقسمونَ باللّهِ، والجهد: المشقَّةُ، والجهد: الطَّاقةُ[2].

(1) الفراهيديّ، العين: (جهد).
(2) ابن سيده، المُحكم: (جهد).

2) ﴿يُشْعِرُكُمْ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (شعر)، ومعنى (ما شعرتُ به): ما فطنتُ لهُ وما علمتُهُ. وما يشعرُكم: وما يدريكم، وهو ذكيُّ المشاعرِ، وهي الحواسُّ، ولِبَني فلانٍ شعارٌ: نداء يُعرَفون بهِ، وعَظَّمَ شعائرَ اللّهِ تعالى وهي أعلامُ الحجِّ من أعمالهِ، ووقفَ بالمَشعَر الحرامِ، ولبِس شعارَ الهمِّ[1]، وأشعرهُ الأمرَ، وأشعرهُ بهِ: أعلمَهُ إيَّاه، والمقصودُ في الآية: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ الإعلامُ بالأمرِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إذا تملَّكَ القلبَ عنادُ الكفرِ؛ ورَّثَهُ عنادَ الإنكارِ

ذكرَ في هذه الآيةِ حالةً أُخرى من تعنُّتِ المعاندين، وردَّها عليهم، فقال: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾؛ ومعنى: ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾، أرادوا آيةً محسوسةً غيرَ القرآنِ كقولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: 8]، أو قولهم: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: 93]، وغيرها منَ الآياتِ المادِّيَّةِ، فردَّ عليهم سبحانه بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، فهو وحدَه القادرُ عليها، وبأَنَّ المعجزاتِ المادِّيَّةَ الَّتي جرَت على أيدي الرُّسل من قَبلِهِ ﷺ، إنَّما هي أفعالٌ للّه تعَالى، ثمَّ خاطَبَ المؤمنينَ الَّذين يتمنَّون مجيءَ الآيةِ؛ لتكونَ سَبَبًا في إيمانِ المُعاندين والمُنكرين، فنبَّهَهُم إلى سُنَنِ اللّه الكونيَّةِ في أخلاقِ البَشَرِ، فقال: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ لانطباعِهم على الكُفرِ والعنادِ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى حرف الواوِ في قوله: ﴿وَأَقْسَمُواْ﴾:

عَطفتِ الواوُ جملةَ: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ على جملة: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ

(1) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (شعر).
(2) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/355.

إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام: 106][1] الآية؛ لبيانِ عظيم شأنِ ذلك الاتِّباع، فمَن لا يتَّبِع ما أَوحَى اللهُ إلى رسولِه يكون ممَّن زُيِّنَ له عملُه، ويقولُ بما قال هؤلاء وبما يدَّعونه ممَّا ذكرَتْه جملةُ القسم.

العطفُ يُبيِّنُ البونَ الكبيرَ بين الاتِّباعِ والإقسامِ بقصدِ الباطل

ومعنى: ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾، بمعنى: جاءَتهم آيةٌ غيرُ القرآن، ممَّا اقترحوه، وهذا إشارةٌ إلى شيءٍ من تعلُّلاتهم وحُججهم للتَّمادي بالكفر بعد أن جاءَتهم البصائرُ والحُججُ العظيمةُ، وبيانُ انحرافِهم التَّامِّ عن اتِّباعِ ما أُوحِي إلى الرَّسول، ومقدارِ التَّقاطعِ والتَّنافرِ بينَ الوحي والرِّسالة من جانب، وبين ما يقترحون من تزيينِ الشَّياطين وإصغاءِ أنفسِهم إليها.

أو أنَّها عطفَت جملة ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ على جملة: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾، ففسَّرت طبيعةَ ذلك التَّزيين: أنَّهم اقترحوا آياتٍ، وأقسموا جهدَ أيمانِهم أنَّهم سيؤمنون بها إن وقعَت، وهذا هو تزيينُ الأعمالِ، قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: 8]، فتدرَّجَ الكلامُ منَ السَّببِ إلى المُسَبَّب.

سرُّ استعمالِ مفردة: ﴿وَأَقْسَمُواْ﴾ بدلًا مِن (حلفوا):

في لفظِ القسمِ إشـــارة إلى انقسامِ النَّاسِ إلى فريقين

أشعرَهم ذلك القسمُ أنَّهم أحرزوا تصديقَ النَّاسِ لهم، وأنَّهم أهلُ حجَّةٍ دامغةٍ على أهل الإيمانِ، على خلاف الحلفِ فإنَّهُ يشعرُهم بتصديق أنفسِهم فحسب، ويبقى الإشكالُ قائمًا أنَّ عليهم أن يقدِّموا الأدلَّةَ على صدقِ دعواهم وحلفهم، وسمِّي الحلفُ قسمًا؛ لأنَّه يكون عند انقسامِ النَّاسِ إلى التَّصديق والتَّكذيب، فكأنَّه يقوِّي القسمَ الَّذي يختارهُ.

نكتةُ إضمارِ المُقسمين باللهِ دونَ الإظهارِ:

قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ ولم يقُل: (وأقسم الذين أشركوا)،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/434.

فقد أضمر ذكرَ المقسمين؛ إيجازًا ولذكرهم فيما سبق في قولِه: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، ثمَّ إنَّ الإضمارَ هنا يفيدُ التَّعميمَ أيضًا فقد يشملُ (الَّذين) أقسموا أنواعَ المنكِرين منَ المشركين، والَّذين كفروا، أو الَّذين لا يعترفون بدينٍ أصلًا منَ المُلحِدينَ وغيرهم؛ لبيانِ أنَّ التَّذرُّعَ بطلبِ المعجزاتِ الحسِّيَّةِ هو دَيْدَنُ المنكِرين، وسيبقى إلى يوم القيامةِ فيهم.

الإضمارُ يشملُ كلَّ مُقسمٍ على مدارِ الزَّمانِ والمكانِ

فائدةُ ذكرِ لفظِ الجلالةِ (الله):

في قولِه تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ ذكرَ لفظَ الجلالة، ولم يقُل: (وأقسموا جهدَ أيمانهم)؛ إذ ما يقتضيه الظَّاهرُ ألَّا يُقسِمَ هؤلاء باللهِ لكونِهم لا يؤمنون بهِ سبحانه مع ما وُصِفُوا به باستعدادِهم لسبِّ اللهِ سبحانه فكيف يُقسمون باللهِ، وهم على هذه الشَّاكلةِ من فساد العقيدةِ؟ فكان ذكرُ لفظِ الجلالةِ هنا، وبيانُ قسمِهم بهِ، كاشفًا عن مدى تناقضِهم بينهم وبين أنفسِهم: أنَّهم يُقسِمون الآنَ بما كان عرضةً لسِبَابِهم بالأمسِ، فلا يقرُّ لهم رأيٌ، ولا تهدأُ لهم حالةٌ، وهذا من قبيل تزيينِ اللهِ لهم أعمالَهم.

تعيينُ المقسَمِ بهِ دفعًا لتوَهُّمِ أن يكونَ المقسمُ بهِ غيره

ولتعيينِ المقسَم به، كي لا ينصرفَ الذِّهنُ إلى أنَّهم أقسموا بآلهتهم، فهم يُقسمون باللهِ تعالى الَّذي سيُنزِل الآياتِ على رسولِه ﷺ.

فنُّ الإطنابِ في قولِهِ تعالى: ﴿جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾:

قوله: ﴿جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ مصدرٌ في موقعِ الحالِ، أي: أقسمُوا به تعالى جاهدين في أيمانهم ﴿لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ﴾ من مقترحاتِهم، أو من جنسِ الآياتِ، وهو الأنسبُ بحالِهم في المكابرةِ والعنادِ وترامي أمرِهم في العُتُوِّ والفساد؛ إذ كانوا لا يعدُّون ما يشاهدونه منَ المعجزاتِ الباهرةِ من جنسِ الآياتِ[1]، وفيه إطنابٌ وإيغالٌ؛ لإظهارِ

إظهارُ شدَّةِ الحرصِ على الصِّدقِ عند التَّمسُّكِ بالباطلِ دليلٌ على عكسِهِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/172.

حرصِهم على معرفةِ الحقِّ، والأمرُ على خلافه، وهو من قبيل قوله: ﴿وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ [الواقعة: 46]، وهو المشارُ: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾ [النحل: 38].

معنى اللَّام في قولِه تعالى: ﴿لَئِن﴾:

التـوكـيـداتُ المُتواليةُ تُشيرُ إلى زَعـزَعـةِ المُقسمين في دواخلِهم

جملة: ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَاۚ﴾ مبيِّنةٌ لجملة: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾، واللَّامُ فيها مُوطِّئةٌ للقَسَم؛ لأنَّها تدلُّ على أنَّ الشَّرطَ قد جُعِلَ شرطًا في القَسَم، فدلَّتْ على قسم محذوفٍ، وقد جاءَت هنا مع فعل القسم؛ لأنَّها صارَت ملازمةً للشَّرط الواقع جوابًا للقَسَم، فلم تنفَكَّ عنه مع وُجُودِ فِعلِ القَسَم، فالدَّاعي لهم إلى هذا القسم، طلبُ الآيات، والاستهانةُ بما رأوا منها[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بـ (إنْ) دون (إذا):

الكـافـرُ المعـانـدُ يقسِم مع علمِه بالجوابِ

التَّعبيرُ بـ (إنْ) دون (إذا) في قولِه: ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾؛ لبيانِ أنَّ مجيءَ الآيةِ على طرفِ الاحتمالِ بالنِّسبةِ للمُقسمين، فهم يعلمون أنَّ مجيءَ الآيةِ واقعٌ موقعَ الاحتمال، لا واقعٌ موقعَ التَّحقيقِ، ففيه بيانُ أنَّ القومَ يعلمون أنَّ مثلَ ذلك لا يقع؛ لإخبارِ القرآنِ بانتفاء وقوعِه، ومع ذلك يُصرُّون على طلبِ مجيءِ الآية.

سرُّ التَّعبيرِ بالغَيبةِ لا التَّكلُّمِ:

الـكـلامُ على الغيبةِ ناسبَ حالَهم؛ تكذيبًا لأيمَانِهم

جاء التعبيرُ بالغيبة في قولِه تعالى: ﴿جَآءَتْهُمْ﴾ وقولِه: ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ﴾ ولم يقُل: (جاءَتنا) و(لنُؤمننَّ)، فأجرَى الكَلامَ على الغَيبَةِ إخبارًا عن حكايةِ قيلِهم لا على التَّكَلُّم حكايةً لقيلِهم، ولو كانَت على التَّكلُّم لكان الْتِفاتًا منَ الغيبةِ في قولِه: ﴿وَأَقْسَمُواْ﴾ إلى التَّكلُّم في (جاءتنا)، فتكون فائدةُ الالتفاتِ إلى حضورِهم تصديقًا لكلامهم، لكنَّه لم يلتفت إلى الخطابِ، وإنَّما بقي الكلامُ على الغيبةِ تناسبًا مع

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/177.

حالهم، وتكذيبًا لأيمانهم وابتغائهم الإيمانَ بالآيات الَّتي اقترحوها إن جاءتهم.

غرضُ التَّنكيرِ في قولِه تعالى: ﴿ءَايَةٌ﴾:

عـمـومُ الآيـةِ في مقصودِ المُنكِرين لِتشملَ أيَّ آيةٍ

المراد بـ ﴿ءَايَةٌ﴾ ما اقترحوهُ على رسولِ اللهِ ﷺ منَ المعجزاتِ المحسوسةِ، ونُكِّرَت ﴿ءَايَةٌ﴾ للعمومِ المُبْهم، أي: أيَّ آيةٍ كانت من جنس ما تنحصرُ فيه الآياتُ في زعمِهم؛ لتقريب حالةِ استجابتِهم وطلبِهم للحَقِّ، وهذا ما أنكرهُ عليهم في قوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

بلاغةُ الاستعارةِ في التَّعبير بلفظِ: ﴿جَآءَتْهُمْ﴾ ولفظ ﴿ءَايَةٌ﴾:

تـشـخـيـصُ الغيبيَّاتِ يُقرِّبُ البيانَ للأفهامِ

التَّعبيرُ بالمجيء مُستعارٌ لظهورِ الآية؛ لأنَّ الشَّيءَ الظَّاهرَ يشبهُ مجيءَ الغائب، فلذلك يُستعارُ له المجيءُ[1]، وهي استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ؛ لحصول الاستعارةِ في فعلِ (المجيء).

هذه الاستعارةُ الأولى والاستعارةُ الثَّانيةُ في لفظِ آيةٍ، حيث شبَّه الآيةَ بغائبٍ فصرَّح بالمشبَّهِ بهِ، وحذفَ المشبَّهَ؛ تجسيدًا للآيةِ، وبيانًا لها في ذهن السَّامع.

معنى اللَّام وغرضُها في قولِه تعالى: ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ﴾:

لا يترك المعاندون طريقًا للهُزْءِ والتَّعريضِ بآياتِ القرآنِ الكريمِ

اللَّام في ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ هي لامُ القَسَمِ، أي: لامُ جَوَابِ القسم، جاءَت تأكيدًا لِمَا أرادُوا إثباتَهُ في بيان صدقِ إيمانِهم؛ إن جاءَتِ الآيةُ الَّتي اقترحوها على الرَّسول، فالدَّاعي لهم إلى القسم في فعل الشَّرط، والتَّأكيد في جوابِه، التَّحكُّمُ على الرَّسول ﷺ في طلب الآياتِ، والاستهانةِ بما رأوا منها[2] من آياتِ القرآنِ وآياتِ اللهِ في خلقِه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/435.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/177.

بلاغةُ تقييدِ الإيمانِ بالآية:

الإيمانُ بالآيةِ الحسِّيَّةِ المقترحةِ لا يعني الإيمانَ باللهِ وبدينِهِ

قوله: ﴿لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ﴾ أظهرَ أنّ المشركين أخبروا عن إيمانِهم بالآيةِ لا بالإسلام، والأصلُ أن تكونَ الآيةُ دالَّةً على الحقِّ، فمقتضى الظَّاهرِ أن يُقالَ: ﴿لَّيُؤۡمِنُنَّ﴾؛ دون (بها) إخبارًا عن إيمانِهم باللهِ واقتناعهم بالإسلام، فعدل عن ذلك لبيان أنَّ إيمانَهم مشكوكٌ فيه، وأنَّه مُتوقِّفٌ على الآيةِ الحسِّيَّةِ فحسبُ، وإيمانُهُم بها لا يعني الإيمانَ باللهِ والاقتناعَ بدينِ الإسلام.

غرضُ القصرِ في قولِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ﴾:

الخالقُ لنواميسِ الكونِ هو وحدَهُ القادرُ على تغييرِها وتبديلِها

قوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾؛ أي: كلُّها، فيدخُل فيها ما اقترحوه دخولًا أوَّليًّا. و﴿عِندَ ٱللَّهِۖ﴾، أي: أمرُها في حُكمِه وقضائِه خاصَّةً، يتصرَّفُ فيها حسبَ مشيئتِهِ المبنيَّةِ على الحِكَمِ البالغةِ، لا تتعلَّقُ بها ولا بشأنٍ من شُؤونها قُدرةُ أحدٍ، ولا مشيئتُه لا استقلالًا ولا اشتراكًا بوجهٍ منَ الوجوهِ، حتّى يُمكِنَني أن أتصدَّى لاستنزالها بالاستدعاءِ، وهذا سدٌّ لباب الاقتراحِ على أبلغِ وجهٍ وأحسنِه، ببيان علوِّ شأنِ الآياتِ، وصعوبةِ منالِها، وتعاليها، من أن تكونَ عُرضةً للسُّؤال والاقتراحِ[1]. والحَصرُ بـ ﴿إِنَّمَا﴾ ردٌّ على المُشركين في ظنِّهم بأنَّ الآياتِ في مقدور النَّبيِّ ﷺ إن كان نبيًّا، فجعلوا عدمَ إجابةِ النَّبيِّ ﷺ اقتراحَهُم آيةً أمارةً على انتفاء نبوَّتِه، فأمرهُ اللهُ أن يجيبَ بأنَّ الآياتِ عندَ اللهِ لا عند الرَّسُولِ ﷺ فالمُعجزاتُ هي أفعالُ اللهِ تعالى تظهر على يدَي النَّبيِّ ﷺ، واللهُ أعلمُ بما يظهرُه منَ الآياتِ، فحصر شأنَ الآياتِ ومجيئَها باللهِ وحدَه، وهو القادرُ عليها يُنزِّلُها على وجهِ المصلحةِ كيف شاءَ لحكمتِه، وليسَت عندي، فَتُقتَرَحُ عَلَيَّ[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/172.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/613.

بلاغةُ المجازِ المُرسَلِ في قوله: ﴿ٱلْآيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾:

المُـعـجـزاتُ في علم اللهِ تعالى ولـيـس لأحـدٍ أن يطلبَها إلَّا مـن بعـد إذنـهِ سبحانَه

معنى كون الآياتِ عند اللهِ: أنَّ الآياتِ من آثار قدرةِ اللهِ وإرادتِه، فأسبابُ إيجادِ الآياتِ من صفاته، فهو قادرٌ عليها، فلأجل ذلك شُبِّهت بالأمور المدَّخرةِ عنده أو المعلومةِ لديه، وليس لأحدٍ أن يُطالبَ بها إلَّا من بعد إرادتِه بإبرازها، فإنْ أرادَ ذلك؛ أبرزها للنَّاس، فكلمةُ (عند) هنا مجازٌ، استُعمِلَ اسمُ المكانِ شديد القُربِ في معنى الاستئثار مجازًا مُرسَلًا؛ لأنَّ الاستئثارَ من لوازم حالةِ المكانِ شديدِ القُربِ عُرفًا، كقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعام: 59]، وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: 21][1].

بلاغةُ الاستئنافِ في قوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾:

الـتَّـنـبـيـه على الـحِـكَـمِ طريقُ القرآنِ في توجيه الأنظار وتسديد النَّظَّار

قوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ كلامٌ مُستأنفٌ غيرُ داخلٍ تحت الأمرِ، مَسوقٌ من جهتِه تعالَى لبيان الحكمةِ الدَّاعيةِ إلى ما أشعَرَ به الجوابُ السَّابقُ من عدم مجيءِ الآياتِ، خُوطِبَ به المُسلِمُون إمَّا خاصَّةً بطريق التَّلوينِ لمّا كانوا راغبين في نزولها طمعًا في إسلامهم، وإمَّا معه ﷺ بطريق التَّعميم[2].

خروجُ الاستفهامِ إلى معنى التَّشكيك والإيقاظ في قوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾:

لا يـعـلـمُ مـا في الأنفُسِ إلَّا اللهُ، والـقـرآنُ مـزَّقَ حُـجُـبَ النَّفس وفضحَ أسرارها

في قوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ جاءت ﴿وَمَا﴾ استفهاميَّة مُستعملة في التَّشكيكِ والإيقاظِ؛ لئلَّا يَغُرَّهُمْ قَسمُ المشركين، وعليه؛ فإن كان الخطابُ للمُسلِمينَ، فليس في الاستفهام شيءٌ منَ الإنكارِ ولا التَّوبيخِ ولا التَّغليظِ، وسِيقَ الخبرُ بصيغة الاستفهامِ؛ لأنَّ الاستفهامَ من شأنه أن يُهيِّئَ نفسَ السَّامعِ لطلب جوابِ ذلك الاستفهام، فيتأهَّبَ لوعي ما يَرِدُ بعدَهُ[3].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/112.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/173.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/437.

ففي قولهِ: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ إشعارٌ للمؤمنين ببُعدِ ما يتوقَّعونَهُ على وجهِ اليقين، فيكشِفُ القُرآنُ هُنا عن خبَايَا تلك النُّفوس، وما ستؤولُ الأحداثُ مَعَهَا، وهذا من قبيل الإعجازِ النَّفسيِّ في القرآن الكريم، إذ لا يعلمُ ما في الأنفسِ إلَّا اللهُ، والقرآنُ مزَّقَ حجبَ النَّفسِ، وفضحَ أسرارَها وخفاياها.

إذا كان الخطابُ للمشركين فالاستفهامُ للإنكارِ والتَّوبيخِ

وكذلك فإنّ (ما) في قوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: استفهاميَّةٌ، ويعودُ عليها ضميرُ الفاعلِ في ﴿يُشْعِرُكُمْ﴾، فإذا جعل الخطابَ في قولهِ: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ خطابًا للمشركين؛ كان الاستفهامُ للإنكارِ والتَّوبيخِ، وقد حُذِفَ مُتعلَّقُ فعل ﴿يُشْعِرُكُمْ﴾، ودَلَّ عليه قوله: ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾، والتَّقديرُ: (وما يشعركم أنَّنَا نأتيكم بآيةٍ كما تريدون)[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالشُّعورِ في قولِه تعالى: ﴿يُشْعِرُكُمْ﴾:

المعرفةُ المرتبطةُ بالشُّعورِ معرفةٌ خفيَّةٌ فيجب أن تبقى مستورةً

وفي معنى ﴿يُشْعِرُكُمْ﴾: الإعلامُ بمعلومٍ من شأنهِ أن يخفى ويدقَّ، يقال: (شعر فلانٌ بكذا)، أي: علِمَه، وتفطَّنَ له، فالفعل يقتضي مُتعلَّقًا به بعد مفعولهِ، ويتعيَّن أنَّ قولَه: ﴿أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هو المتعلَّقُ به، فهو على تقدير باء الجرِّ، والتَّقديرُ: بأنَّها إذا جاءَت لا يؤمنون، فحذفُ الجارِّ مع (أن) المفتوحة حذفٌ مُطَّردٌ، فقال: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ لما في القضيَّة منَ الخفاءِ.

أثرُ الفعلِ المضارعِ في تصويرِ حالِ المؤمنين:

بيانُ الحالةِ الفكريَّةِ الممزوجةِ بالشُّعور والتَّرقُّب

أفادَ الفعلُ المُضارعُ ﴿يُشْعِرُكُمْ﴾ تصويرَ حالِ المؤمنين تجاه المشركين، وما يكون في دواخلهم من تجدُّدِ الشُّعورِ الدَّائمِ تجاههم، وهذا يدلُّ على الحالةِ الفكريَّةِ المزوجةِ بالشُّعور، وبيانِ مقدارِ التَّحسُّسِ المقصودِ والاستشعارِ والتَّرقُّبِ لدى المؤمنين حيالَ هؤلاءِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/613.

انتظارًا لإيمانهم، وترقُّبًا لنزول آيةٍ تجعلُهم مؤمنين، لكن: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قطعت ذلك التَّرقُّبَ، وأيقظتهم من ذلك الشُّعورِ تجاهَ المشركين.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ في كسرِ (إنَّ) وفتحِها:

علمُ إيمانِ المؤمنين لله وحدَه وليس لأحدٍ أن يُثبته أو ينفيَه:

في قوله تعالى: ﴿أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قرأ ابنُ كثير وأبو عمرو ويعقوب وخلف العاشِرُ بكسر الهمزة: ﴿إِنَّهَا﴾[1]، فيكون قولُه: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ وقفًا، ثمَّ ابتَدَأَ الخَبَرُ عَنهُم: ﴿إِنَّهَا إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وكسروا الألفَ على الاستِئناف، وقرأَ الباقون[2] بالفتح على معنى: لَعَلَّها إذا جاءَت؛ لا يُؤمنونَ، قالَ الخَليلُ: "وهذا كَقَولِهِم: إيتِ السُّوقَ أَنَّك تشتري لنا شَيئًا، أي: لَعَلَّك"[3]، وقيل: المعنى: أمشعرٌ يشعرُكُم أنَّها إذا جاءَت؛ لا يؤمنون، أي: بعدم إيمانهم[4].

نكتةُ استعمالِ ﴿إِذَا﴾ دون (إنْ):

الأدقُّ في نظمِ الآيةِ والألصقُ بمعناها هو استعمالُ (إذا)

في الإخبار عن قيلهم ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ ذكرَ (إنْ)، وهنا في قولِه تعالى: ﴿إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ استعملَ ﴿إِذَا﴾، فكلٌّ منهما للشَّرط، ولما يُستقبل منَ الزَّمان، لكنَّ بينهما فرقًا دقيقًا في المعنى، فإنَّ (إذا) ليست منَ الجوازم، بخلاف (إنْ) الّتي هي من جوازم الفعل المضارع، ولكنَّها من حيثُ المعنى لا تفيدُ تحقّقَ الوقوعَ، بل تفيدُ احتمالَ الوقوعِ، و(إذا) تفيد تحقُّقَ الوقوعِ، ولهذا أثَرٌ في تفسير الآية، فقوله: ﴿إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أي: إنْ تحقَّقَ مجيءُ الآياتِ؛ فإنَّهم لا يؤمنون، وأمَّا لو كان الكلامُ: (إن جاءَت لا يؤمنون)، فلا يُفهمُ منها تحقُّقُ الوقوعِ، وبالتَّالي فلا يكون الحجاجُ مقبولًا، ويكون منَ اللَّغو، ولا معنى للكلام.

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/261.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/261.
(3) ابن زنجلة، حجّة القراءات، ص: 265.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/437.

علَّةُ نفي الإيمانِ دون مرادفاتِهِ:

قال سبحانه: ﴿إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، ولم يقُل: (إذا جاءت يكفرون)؛ وذلك لأنَّهم كافرون، فلا يُتصوَّر حصولُ الكفرِ، وهو واقعٌ بهم، وكذلك فإنَّهم أقسموا باللّه جهدَ أيمانِهم أنَّهم سيؤمنون؛ إن جاءَت تلك الآياتُ، وكان حريًّا بهم أن يقولوا: إنَّهم سيؤمنونَ باللّهِ، فقد احتملَ كلامُهم أنَّهم حتَّى وإن أتتِ الآيةُ؛ فإنَّهم لا يؤمنون باللّه، فقال: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، والتَّعبيرُ فيه كشفٌ عن خفاءِ ما في النَّفس، لا يعلمُه أحدٌ إلَّا اللّهُ، فهو أعلمُ بخبايا تلك النُّفوس الَّتي تدَّعي الإيمانَ ظاهرًا، وهي في حقيقة أمرها غيرُ مؤمنةٍ.

اللهُ أعلمُ بخفايا النُّفوسِ الَّتي تدَّعي الإيمانَ، وهي غيرُ مؤمنةٍ

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ في الخطابِ والغيبةِ:

قرأ الجمهورُ: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بياء الغيبةِ، إخبارًا عنِ المشركين، كما قال في الآية اللَّاحقة: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

اختلافُ توجيهِ الخطابِ تنويعٌ في المعاني وتعدُّدٌ في الدّلالات

وقرأ ابنُ عامر، وحمزةُ بتاء الخطاب[1]، وعليه فالخطاب للمشركين في قَوله تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ الَّذين أَقسمُوا، فقالَ جلَّ وَعزَّ: وَما يدريكم أَنَّكُم تؤمنون؟[2]

بلاغةُ الحذفِ في قوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾:

تمَّ الكلامُ عند قوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾، ومُتعلَّقُ ﴿يُشْعِرُكُمْ﴾ محذوفٌ، أي: وما يشعركم ما يكون، فإن كان الخطابُ للكفَّار؛ كان التَّقديرُ: وما يشعركم ما يكون منكم، إنّ جاءَتكم الآيةُ. فأخبر بأنَّهم لا يؤمنون، وإن كان الخطابُ للمؤمنين كان التَّقديرُ: وما يشعرُكم –

حـذفُ المتعلَّقِ هـو الأنـسـبُ بنفي شُعـور ما سيكون

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/261.

(2) ابن زنجلة، حجّة القراءات، ص: 265.

أيُّها المؤمنون - ما يكون منَ المنكِرين إن جاءَتهم الآيةُ، ثمَّ أخبر المؤمنين بعلمه فيهم لا يؤمنون في جميع أحوالهم.

نكتةُ حذفِ متعلَّقِ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾:

الإيمانُ بالآيات بصيرةٌ وهدايةٌ منَ الله تعالى

قوله: ﴿إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أي: لا تدرون أنَّهُم لا يؤمنون، أنكر السَّبَبَ مبالغةً في نفي المُسَبِّبِ، وفيه تنبيهٌ على أنَّه - ﷺ - إنَّما لم يُنزِلها لعلمه بأنَّها إذا جاءَت؛ لا يؤمنون بها، ومُتعلَّقُ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ محذوفٌ، وحَسُنَ حذفُه كون ما يتعلَّقُ به وقعَ فاصلةً، وتقديرهُ: لا يؤمنون بها[1].

فائدةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ دون: (وما يدريكم):

مجيءُ الآياتِ (المُقترحة) أو عدمُ مجيئها سواءٌ عند المُعاندين

لا يُقاس قولُه: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ على قول العربِ: (ما يدريك)؛ فقد شاع تركيبُ (ما يدريك)؟ في الكلام، حتَّى جرى مَجرَى المثل باستعمالٍ خاصٍّ، هو أن يكونَ اسمُ (ما) فيه استفهامًا إنكاريًّا، وأن يكونَ مُتعلَّقُ (يدريك) هو الأمرُ الَّذي ينكرُه المتكلِّمُ على المخاطَب.

وهذا على خلاف ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، فلو قِيسَ استعمالُ ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ على استعمال (ما يدريكم)؛ لكان وجودُ حرفِ النَّفي مُغايرًا للمقصود؛ إذ لا وجودَ للاستفهام الإنكاريِّ في الآية، وإنَّما جاء الخطابُ حكيمًا يخبرُ المؤمنين أنَّ مجيءَ الآياتِ الَّتي اقترحوها أو عدمَ مجيئِها سواءٌ عند أهلِ الكفر.

نكتةُ التَّعبيرِ بالنَّفي في ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾:

نفيُ الإيمانِ إيماءٌ إلى علم اللهِ تعالى لِمَا يدورُ في نفوسِهم

معتادُ الكلام في نظيرِ هذا التَّركيب الّذي في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أن يجعلَ مُتعلَّقَ فعلِ الدِّرايةِ المتضمّن في معنى ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ هو الشَّيءَ الَّذي شأنُه أن يظنَّ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/616.

المخاطَبُ وقوعَه، والشَّيءُ الَّذي يظنُّ وقوعَه في مثل هذا المقام هو أنَّهم يؤمنون وليس ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾؛ لأنَّهُ الَّذي يقتضيه قسمُهم ﴿لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ﴾، فلمَّا جعلَ مُتعلَّقَ فعلِ الشُّعورِ نفيَ إيمانِهم كان مُتعلَّقًا غريبًا بحسب العُرفِ في استعمالِ نظيرِ هذا التَّركيب[1]، فكان الأصلُ أن يكونَ الكلامُ: (وما يشعركم أنَّها إذا جاءَت يؤمنون)، ولكن ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ هو المُتعيَّنُ، وقد أومأ الزَّمخشريُّ إلى ذلك فبيّن أنّ اللّه أخبرَ المؤمنين بعلمِه فيهم، فقال: "إنَّها إذا جاءَت؛ لا يؤمنون البتَّة، وما يشعرُهم أن تكونَ قلوبُهم حينئذٍ، كما كانَت عند نزولِ القرآنِ وغيره منَ الآيات، مطبوعًا عليها، فلا يؤمنوا بها"[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

اليَمِينُ والقَسَمُ:

القسم: النَّصيب، والمُراد أنَّ الَّذي أقسمَ عليه منَ المالِ وغيرِه قد أحرزه، ودفعَ عنهُ الخصمَ باللّهِ، واليَمينُ اسمٌ للقسَم مُستعارٌ، وذلك أنَّهم كانوا إذا تقاسموا على شيءٍ؛ تصافحوا بأيمانهم، ثمَّ كَثُر ذلك حتَّى سُمِّيَ القسمُ يمينًا.

القَسَمُ اسمٌ للقسمِ حقيقةً واليَمينُ فيه مجازًا

فالقسمُ على الحقيقة، واليمينُ هو القَسَمُ على المجازِ في استعمالِ اليَدِ للمصافحةِ بتوثيق القسمِ بينهم.

القَسَم والحلف:

الفرقُ بين القسَمِ والحَلْفِ أنَّ القسمَ أبلغُ منَ الحلْفِ؛ لأنَّ معنى قولِنَا: أقسمُ باللّه: أنَّه صارَ ذا قسمٍ باللّه، والقسمُ: النَّصيبُ، والمرادُ أنَّ الَّذي أقسمَ عليه منَ المال وغيره قد أحرزَهُ، ودفعَ عنه الخصمَ باللّهِ، والحلْفُ من قولكَ: سيفٌ حليفٌ، قاطعٌ ماضٍ، فالحلْفُ باللّهِ، هو قطعٌ للمخاصمةِ باللّهِ، فيكون القسمُ أبلغَ منَ الحلفِ؛ إذ يتضمَّنُ

(الحَلْفُ) قَطعٌ للمُخَاصَمَةِ، و(القَسَمُ) قطعٌ لها ودَفعٌ للخَصمِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/438.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/56 - 57.

معنى قطعِ المخاصمةِ مع دفعِ الخصمِ، ففيه معنيان، أمَّا الحلفُ؛ فيفيدُ معنًى واحدًا، وهو قطعُ المخاصمةِ، فحسبُ[1]. قال التَّبريزيُّ: الإقسامُ إفعالٌ منَ القسم الَّذي هو بمعنى النَّصيب والقسمة، وكان إقسامُهم باللّٰهِ غايةً في الحلف، وكانوا يقسمون بآبائهم وآلهتهم، فإذا كان الأمرُ عظيمًا؛ أقسموا باللّٰهِ تعالى[2].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 42.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/613.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي عشر، سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 11 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-63-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 11 : سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-63-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9795022 بتاريخ 2023/12/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»